CSTD

مقال

الانثروبولوجيا ومكافحة التمرد، القصة الغريبة للعلاقة الغير عادية

Military Review

مونتجمري ماكفيت

٢٠١٩

مركز تنمية الفكر الاستراتيجي

مركز تنمية الفكر الاستراتيجي

الانثروبولوجيا ومكافحة التمرد

القصة الغريبة للعلاقة غير العادية

مقال

www.cstd.site

cst-development@protonmail.com

نسخة منقحة من مقال نشر في العدد الأول لسنة ٢٠٠٥ في مجلة العرض العسكري

مونتجمري ماكفيت جيه دي

٢٠١٩

الانثروبولوجيا ومكافحة التمرد


A civil affairs officer speaks with Iraqi tribal leaders at the Civil-Military Coordination Center in Baghdad, 12 May 2003.

هناك شيء غامض يدور داخل وزارة الدفاع الأمريكية (DOD) فخلال العامين الماضيين، دأب كبار القادة على طلب أمر غير اعتيادي أو متوقع وهو التعرف على ثقافة الخصم. في شهر يوليو ٢٠٠٤، كتب اللواء المتقاعد روبرت سكالس، مقالة لمجلة الأحداث، التابعة لكلية الحرب البحرية، عارضت الفكرة السائدة عموما في العسكرية الأمريكية، بأن النجاح في الحرب يتحقق في أفضل صوره بواسطة التفوق التكنولوجي الساحق. يجادل سكالس بأن الصراع الذي نشاهده الآن في العراق يتطلب "**قدرة استثنائية على فهم شعب العراق و ثقافته ودوافعه**". في أكتوبر **٢٠٠٤** استنتج آرثر يبروسكي، مدير مكتب تشكيل القوات أن "**معرفة العدو وثقافته ومجتمعه قد تكون أكثر أهمية من معرفة نظام أو طريقة قتاله**". في نوفمبر **٢٠٠٤**، رعى مكتب البحوث البحرية ووكالة مشاريع البحوث المتقدمة للدفاع(DARPA) ، مؤتمر "**معرفة ثقافة العدو والأمن القومي**" وهو المؤتمر الرئيسي الأول لوزارة الدفاع حول العلوم الاجتماعية منذ عام **١٩٦٢**.

لماذا أصبحت المعرفة الثقافية فجأة ضرورة ملحة إلى هذا الحد؟ في المقام الأول لأنه قد ثبت عدم ملائمة الطرق التقليدية للحرب في العراق و أفغانستان. فالتكنولوجيا الأمريكية والتدريب والتعاليم القتالية

التي تم تصميمها لمجابهة التهديد السوفيتي لم يتم وضعها لعمليات التمرد الفعالة حيث يمتزج المدنيون مع المقاتلين في مناطق مدنية متشابكة المسالك.

إن عمليات القتال الرئيسية التي أطاحت بنظام صدام حسين كانت بسيطة نسبيا، لأنها تطلبت أن يقوم الجيش الأمريكي بأفضل ما يقوم به و هو القيام بمناورات حربية في أراض مفتوحة مستخدما قوة نيران هائلة مع دعم جوي. على أية حال، فإنه منذ نهاية المرحلة **"الساخنة"** من الحرب، تقوم قوات التحالف بحرب معقدة الجوانب وضد عدو لا يفهمونه. فالهيكل التنظيمي للمتمردين ليس هيكلا عسكريا ولكنه عشائريا. و تكتيكاتهم ليست مطابقة للأعراف وغير متماثلة وأسلحتهم ليست دبابات وطائرات ولكنها أجهزة تفجير مبتكرة. ولا يلتزمون باتفاقيات جنيف ولا يبدو أن لديهم أي قواعد عامة لطريقة الاشتباك .تتطلب مجابهة التمرد في العراق معرفة ثقافية واجتماعية للخصم. ولكن، لم تأخذ أي من عناصر القوة الوطنية الأمريكية السياسية أو العسكرية أو الاستخباراتية أو الاقتصادية في حسابها ثقافة الخصم بشكل واضح في تشكيل وتنفيذ السياسة. إن هذه الفجوة في عدم معرفة ثقافة الخصم سببها بسيط، وهو الغياب الكلي تقريبا للأنثروبولوجيا في مؤسسة الأمن القومي.

إن العلوم الإنسانية التي دعيت فيما مضى "خادمة الاستعمار" كانت لها علاقة طويلة ومثمرة مع عوامل عديدة للأمن القومي، والتي تسببت في الإنهاء المفاجئ وعدم متابعة حرب فيتنام. القصة الغريبة لميلاد أو بداية الانثروبولوجيا كمجال معرفة خاص بالحرب وغوصه المفاجيء في هاوية مقاومة الحداثة، قد تشابك و ارتبط بفشل الولايات المتحدة في فيتنام.

إن الغياب الغريب والواضح للأنثروبولوجيا في ميدان الأمن القومي منذ حرب فيتنام كانت له عواقب خطيرة في مجابهة التمرد في العراق، وخاصة أن النهج السياسي والعمليات الحربية المبنية على معرفة ثقافية جزئية وغير كاملة، غالبا ما تكون أسوأ من عدم وجودها على الإطلاق.

غياب الدراية الثقافية

في حالة صراع بين خصمين متكافئين يستخدم كل منهما تكنولوجيا متشابهة، يكون تفهم ثقافة الخصم غير ذي صلة بالصراع إلى حد كبير. فالحرب الباردة، بكل تعقيداتها خاضتها قوتان من الحضارة الأوروبية ضد بعضهما البعض. ومع ذلك، خلال عمليات مكافحة ضد عدو غير غربي، فإن ثقافة العدو

تكتسب أهمية كبيرة. يُعَرف الكتيب الميداني لإدارة الجيش الأمريكي FM 3-07-22 عمليات مكافحة التمرد بأنها "**حركة منظمة تهدف إلى الإطاحة بالحكومة الشرعية من خلال التخريب والصراع المسلح**". "**هو صراع سياسي. عسكري طويل يتم تخطيطه لإضعاف سيطرة وشرعية الحكومة بينما يزيد من سيطرة المتمردين**". أضيف تأكيد بأن "**القوة السياسية هي القضية المركزية في التمرد**". ولذا يجب أن تحدد الاعتبارات السياسية مسألة الأعمال العسكرية كمسألة أساسية للاستراتيجية. أوضح الفريق جيرالد تيمبلار البريطاني في عام ١٩٥٣ مايلي: " **أن الحل ليس في إرسال قوات أكثر إلى الأدغال ولكن معرفة كيفية السكن في قلوب وعقول الناس**". يتطلب الفوز بالقلوب والعقول فهماً للثقافة المحلية.

فبعيدا عن القوات الخاصة، نرى أن معظم جنود الولايات المتحدة غير مدربين على فهم الثقافات والمجتمعات الأجنبية أو العمل معها. فقد قال أحد الضباط الأمريكيين في العراق برتبة نقيب:" **إنني لم أتدرب أبدا على كيفية الجلوس مع شيخ ... فقد أعطاني أحد الشيوخ دشداشة و كل ما يتعلق بثياب الشيخ مدعيا بأني شيخ جديد في البلدة ولذا يجب أن أرتدي ملابس الشيوخ. لا أعلم ما إذا كان يحاول كسب تأييدي بسبب رغبته في شيء ما (أو ما إذا كان هناك كذلك) شيء جيد أو سيء.**" في الحقيقة بمجرد أن أطاحت قوات التحالف بصدام حسين تحولت القوات إلى دور اللاعب الرئيسي في النظام الاجتماعي العراقي. فقد أصبح النقيب الشاب في واقع الأمر هو الشيخ الجديد في البلدة وكان يلقى الاحترام اللائق من قبل مضيفه العراقي.

وطبقا لما يشير إليه ذلك المثال، فإن قوات الولايات المتحدة في أغلب الأحيان لا تعرف من هم أصدقاؤها. كما أنها لا تعرف من هم أعداؤها. أبدى أحد القادة العائدين من الفرقة الثالثة مشاة ملاحظته قائلا:" **لقد كنت على دراية تامة بالموقف. ولكن ما كان ينقصني هو الدراية الثقافية. كنت أعرف أين تختبئ كل دبابة معادية في حفرتها على التلال البعيدة عن المدن ولكن المشكلة كانت أنه على جنودي محاربة أفراد متعصبين يهاجمون مترجلين أو في سيارات بيك أب ويطلقون القذائف الصاروخية RBGS و AK-47. بذكاء عظيم من المتمردين.**"

بينما قد تكون عواقب غياب المعرفة بالثقافة أكثر وضوحا (أو ربما أكثر خطورة) أثناء مكافحة التمرد، فإن الفشل في فهم الثقافات الأجنبية كان عامل رئيسي في الإخفاقات المتعددة للأمن القومي والاستخبارات. أظهرت روبرتا ولستتر في دراستها عام ١٩٦٢، بعنوان بيرل هاربر: ***الإنذار و القرار***، أنه

رغم أن حكومة الولايات المتحدة التقطت الإشارات اليابانية (متضمنة المحادثات والبرقيات التي تم حل شفرتها وتحركات السفن اليابانية) فقد فشلت في تمييز الإشارات من الضوضاء لمعرفة أي الإشارات ذات معنى . لأنه لم يكن من المتصور أن اليابانيين يمكن أن يفعلوا شيئا **"بغير إدراك"** مثل مهاجمة قيادة أسطول الولايات المتحدة في المحيط الهادئ.

مذهب الأفضلية العرقية هذا (عدم القدرة على وضع الموقف الثقافي الخاص جانبا وتخيل العالم من منظور المجموعة الأخرى) يكون خطيرا في سياق الأمن القومي على وجه الخصوص. لأنه يمكن أن يشوه الفكر الاستراتيجي ويؤدي إلى افتراضات أن الخصم سوف يتصرف بالضبط بنفس الطريقة التي قد نتصرف بها. أتت التجارب النووية للهند في الحادي عشر والثالث عشر من مايو عام ١٩٩٨ كمفاجأة كاملة لأن هذا النوع من **"صور المرآة"** موجود بين محللي وكالة الاستخبارات المركزية طبقا للتحقيق الداخلي الذي قام به ديفيد جرميه نائب رئيس سابق بقيادة الأركان المشتركة، نجد أن المشكلة الحقيقية كانت افتراض من قبل محللي الاستخبارات وصناع السياسات بأن الهنود لن يجربوا أسلحتهم النووية لأن الأمريكيين لن يجربوا أسلحتهم النووية في ظروف مشابهة. وقال جريميه:**" إن المخابرات وجماعات السياسة كان لديهم اعتقاد راسخ بشأن تلك التجارب وهو أن حزب بهاراتيا جاناتا كان سيتصرف مثلما (كنا) سنتصرف".**

تعاني الولايات المتحدة من نقص المعرفة الثقافية في مؤسسة أمنها القومي لسببين أساسيين مرتبطين ببعضهما. السبب الأول، هو أن الانثروبولوجيا غائبة بشكل تام وواضح كنظام داخل مؤسسة أمننا القومي وبوجه خاص داخل مجتمع الاستخبارات ووزارة الدفاع.

إن الانثروبولوجيا فرع من علم الاجتماع هدفه الرئيسي، تقليديا، دراسة المجتمعات والقبائل غير الغربية. تشمل منهجيات الانثروبولوجيا مراقبة المشارك والعمل الميداني والبحوث التاريخية.

إن مذهب النسبية الثقافية هو أحد المعتقدات المعرفية الرئيسية للأنثروبولوجيا . أي فهم المجتمعات الأخرى من داخل النظام الخاص بها.

إن المهمة الرئيسية للأنثروبولوجيا كانت تاريخيا تفسير المعرفة المكتسبة في **"الميدان"** إلى الغرب. وبينما قد يبدو واضحا في ذاته أن هذا المنظور يكون مفيدا لمؤسسة الأمن القومي فإن واحدة فقط من جامعات

الدفاع القومي (التي تقدم درجة الماجستير للأفراد العسكريين) لديها حاليا عالِم واحد بالأنثروبولوجيا في كلياتها. في جامعة وست بوينت، التي تضع تقليدا يشدد بشكل جدي على الهندسة والانثروبولوجيا يشار إليها باستخفاف بواسطة الطلبة العسكريين **"كمجانيين يسكنون أكواخ"**. ورغم تقدير العلوم السياسية كنظام في دائرة صنع السياسية العليا فإنه لم يتواجد عالِم انثروبولوجيا أبدا في مجلس الأمن القومي.

السبب الثاني المتعلق بالنقص الحالي في المعرفة الثقافية هو فشل العسكرية الأمريكية في تحقيق أي شيء يشبه النصر في فيتنام. بعد حرب فيتنام، وضع رجال هيئة الأركان المشتركة رؤوسهم بشكل جماعي في الرمل وقرروا عدم الخوض في حرب غير مألوفة ثانية. من وجهة نظر عسكرية بحتة، كان أسهل لهم التركيز على تهديد الدبابات السوفيتية المتدفقة من خلال ثغرة فولدا، مما دفع إلى حرب برية أوروبية. حرب يمكنهم خوضها مستخدمين العقيدة والتكنولوجيا المعروفة لديهم وذلك سيضمن فوزا واضحا ومطلقا.

إن خيار استخدام القوة الضاربة ووجود أهداف واضحة للحملة قد تم إضفاء الصفة الرسمية عليه في ما قد أصبح معروفا بتعاليم وينبرجر. أوضح كاسبر وينبرجر وزير الدفاع في كلمة ألقاها سنة **١٩٨٤**، ستة مبادىء صممت لتأكيد أن الوطن لن يصبح متورطا أبدا في فيتنام أخرى. عند منتصف الثمانينات كان هناك مبررا للقلق: فقد بدا من المحتمل نشر قوات في السلفادور، كما ثبت أن التورط في لبنان مشئوم بعد قصف ثكنات البحرية الأمريكية في بيروت. اعتقد وينبرجر في رد فعله لهذه الأحداث انه يجب إشراك القوات فقط في حالة ما إذا كانت المصالح الأمريكية معرضة للمخاطر كدعم فقط لأهداف سياسية وعسكرية محددة بوضوح وفقط **"بتصميم واضح على النصر"**.

عام **١٩٩٤**، قام رئيس هيئة الأركان المشتركة كولن باول (المساعد العسكري السابق لواينبرجر) بإعادة توضيح العناصر الرئيسية لتعاليم واينبرجر، مؤكدا بشدة على فكرة أنه عند استخدام القوة يجب أن تكون ساحقة وغير متجانسة مع القوة المستخدمة بواسطة العدو. ضمت تعاليم باول –واينبرجر كجزء منها خيار **"العمليات القتالية الكبرى"** الحروب الكبرى كمسألة خيار قومي. رغم أن تعاليم باول –واينبرجر تآكلت أثناء سنوات رئاسة كلينتون، خلال عمليات أخرى غير الحرب في هاييتي والصومال والبوسنة وخلال الضربات الوقائية في أفغانستان والعراق في إدارة بوش الثانية، إلا أنه لم تنشأ تعاليم بديلة لتحل محلها.

لا يوجد لدينا تعاليم **"لبناء وطن"،** والتي تتجنبها القوات المسلحة كمسئولية لأنه لم يتم تغطيتها بواسطة المادة ١٠ من القانون الأمريكي، الذي حدد مسئوليات القوات المسلحة كعنصر من القوة الوطنية. الكتيب الميداني 3-07، الذي يتناول عمليات الاستقرار والدعم، لم يكن انتهى إعداده حتى فبراير٢٠٠٣ رغم أن القوات المسلحة الأمريكية كانت بالفعل متورطة بشدة في هذه العمليات في العراق.

الكتيب الميداني 3-07-22 الذي أُعد ليكون وثيقة مؤقتة، مازال موجها أصلا من أجل قتال عدو تورط في حرب ماوتسي تونج الثورية وهو نوع من التمرد لا ينطبق بشكل كبير على الوضع في العراق حيث تتسابق منظمات متعددة من أجل أهداف مشوشة ومتنوعة.

منذ عام **١٩٢٣** كانت العقيدة الرئيسية السائدة لاستراتيجية الحرب في الولايات المتحدة أن القوة الضاربة المنتشرة ضد دولة متساوية معها في القوة ستؤدي إلى نصر عسكري. لكن في حالة العمليات العسكرية ضد التمرد، مثل الحالة التي تواجهها الولايات المتحدة حاليا في العراق، تصبح هذه العقيدة غير صالحة للتطبيق، بل قد تسبب إشكالية إذا أصبحت هدف. أثناء التفاوض في هانوي قبل سقوط سايجون بأيام قليلة، قال العقيد هارى سومرز جيه أر من جيش الولايات المتحدة لعقيد من فيتنام الشمالية: **" أنت تعلم، إنكم لم تهزمونا أبداً في ميدان المعركة"**. فأجاب العقيد الفيتنامي قائلا: **" قد يكون ذلك حقيقيا، ولكن ذلك أيضا ليس ذا صلة بالموضوع"**. نفس الكلام ممكن أن يقال عن الصراع في العراق.

الفوز في ميدان القتال مقابل خصم متمرد ليس له صلة بالموضوع، لأن القتال من أجل السلطة والشرعية ما بين مجموعات متنافسة ليس له حل عسكري صرف. غالبا، ما يكون لتطبيق القوة الساحقة تأثير سلبي غير مقصود وهو تقوية التمرد عن طريق التسبب في سقوط شهداء وزيادة التطوع وإظهار **"عنف"** القوات الأمريكية.

الأسلوب البديل لمكافحة (التمرد)، مثل الذي تبناه البريطانيون أخيرا من خلال التجربة والخطأ في إيرلندا الشمالية، يتضمن التالي: خطة شاملة لتخفيف الأوضاع السياسية التي أدت لاندلاع التمرد، والتعاون المدني - العسكري، واستعمال أقل للقوة، وتحريات أكثر وقبول الطبيعة المتطاولة للصراع، المعرفة الثقافية العميقة للخصم.

رغم أن معرفة ثقافة الخصم لها أهمية في عمليات مكافحة التمرد، فإن أهميتها غير كبيرة في العمليات القتالية الكبرى. وحيث أن تعاليم باول – واينبرجر قصدت أن الحرب المألوفة ذات المستوى الضخم كانت النوع المقبول الوحيد للصراع، فلا توجد حاجة حالية أو مستقبلية ملحوظة لإنشاء تعاليم وخبرات خاصة بالحرب غير العادية، بما في ذلك مكافحة التمرد. وهكذا، لم يكن هناك حاجة لإدماج المعرفة الثقافية في التعاليم و التدريب والحرب. وذلك ما حدث، حتى الآن.

في **٢١** أكتوبر ٢٠٠٣، عقدت لجنة الخدمات المسلحة بمجلس النواب جلسة استماع لمراجعة الدروس المستفادة من عملية حرية العراق. حَثّت شهادة اللواء سكالس عضو الكونجرس "**أيك**" سكيلتون على كتابة خطاب إلى وزير الدفاع دونالد رامسفيلد قال فيها: **"في كلمات بسيطة، لو كنا فهمنا الثقافة وطريقة التفكير العراقية، فإن خططنا للحرب كانت ستصبح أفضل مما هي عليه وكانت خطة فترة ما بعد الحرب وجميع تحدياتها ربما أفضل بكثير ونكون قد أعددنا أنفسنا بشكل أفضل للخوض في الوحل بدون توقف... للفوز بالسلام في العراق."**

حتى مشاهير وزارة الدفاع مثل أندرو مارشال، المدير الغامض لدائرة تقييم شبكة اتصالات البنتاجون يطالبون "**بمعرفة على مستوى علوم الإنسان لطبقة عريضة من الثقافات**" لأن هذه المعرفة سوف تثبت أنها عنصر أساسي في إدارة العمليات المستقبلية. بالرغم من أن كبار المسئولين في حكومة الولايات المتحدة مثل سكليتون طالبوا "**بأفراد في صفوف المدنيين لديهم معرفة وتفَهُم ثقافي لتكوين العملية السياسية**". هناك القليل من علماء الانثروبولوجيا سواء يمكن الوصول لهم أو يرغبون في العمل في نفس المجال مع القوات المسلحة.

الوضع الحالي للنظام

بالرغم من أن الانثروبولوجيا هي النظام الأكاديمي الوحيد الذي يسعى بشكل واضح لفهم الثقافات والمجتمعات الأجنبية، فإن مساهمتها هامشية في سياسة الأمن القومي الأمريكي في أفضل الأحوال وكدعابة في أسوأ الأحوال. فخلال الثلاثون عاما الماضية كنتيجة لاختيارات الحياة المهنية الفردية لعلماء الانثروبولوجيا والميل نحو الانتقاد الذاتي الانعكاسي المشتمل داخل النظام نفسه فقد أصبح النظام معزول بإحكام داخل برجه العاجي.

الانثروبولوجيا هو في الأصل نظام أكاديمي خلافا للعلوم السياسية والاقتصادية. غالبية علمائه الحاصلين على درجات علمية حديثا يتنافسون بوحشية على عدد محدود من الوظائف الجامعية ذات المرتبات القليلة، ورغم أنه يوجد طلب متزايد من قبل الصناعة لاستخدام علماء الانثروبولوجيا لاستشارتهم في تصميم المنتج و التسويق والثقافة التنظيمية، ما زال علماء الانثروبولوجيا يفضلون دراسة **" الغريب وغير المفيد"** في كلمات أ. ل كروبر.

إن التراجع إلى البرج العاجي هو أيضا ناتج ميول الانعزاليين داخل النظام. بعد حرب فيتنام، كان رفض روابط النظام التاريخية بالاستعمار رائجا بين الانثروبولوجيين. بدأوا يعبدون اكتشاف نظامهم طبقا لما أظهره مقال كاثلين جوف عام ١٩٦٨ ***علم الانثروبولوجيا : طفل الإمبريالية***. و تبعه المختارات الأدبية لديل هيمس عام ١٩٧٢ إعادة اكتشاف علم الانثروبولوجيا وتوج في مقال الكاتب الصحفي طلال أسد **"علم الانثروبولوجيا وصدام المستعمر"**.

رفض مكانة الانثروبولوجيا كخادم للاستعمار، رفض علماؤه **" التعاون"** مع القوى الوطنية، بدلا من ذلك أخذوا يتنافسون على تمثيل مصالح الشعوب الأصلية المتورطة في حروب مع المستعمر الجديد. في كلمات جياترى تشاكرافورتى سبيفاك **"سيتحدث علماء الانثروبولوجيا الآن نيابة عن التابعين"**. و هكذا بدأوا يتساءلون عن الوضع المعاصر للنظام. إضافة إلى أحوال الاستعمار التي نشأ عنها هذا الوضع، بدأت الانثروبولوجيا عملية قاسية لجلد الذات، مسلحة بتفاسير خطيرة مدعمة بماركسية جديدة مرتدة ذاتيا، لدرجة لا يمكن تخيلها تقريبا لأي فرد خارج النظام.

التحول في اتجاه ما بعد الحداثة داخل الانثروبولوجيا زاد من الميل نحو جلد الذات مع كون الهدف الرئيسي **"تحليل معنى القصص المركزية الرمزية للثقافة الأوربية"**. هذا التحول بعيدا عن الانثروبولوجيا الوصفية نتج عنه بعض أسوأ الكتابات التي يمكن تخيلها. على سبيل المثال **" الانثروبولوجيا الثقافية"** وهي من إحدى الصحف الفائقة الاحترام في الانثروبولوجيا في الولايات المتحدة، و هي تنشر عادة مقالات مبهمة مثل **" استعادة الذات الحقيقية في الكهروروحانيات للحب الكوني"** و **"مستهلكي المادة"** ، وموضوعات مختلفة مثل : الحيرة ، مقالات إمكانية ارتباط العالم، وبحث لأحد المنادين بمساواة المرأة بالرجل خارج الحدود.

تحصل عالم الانثروبولوجيا ستيفن تبلر مؤخرا على المركز الرابع في مسابقة الكتابة السيئة بهذه المختارات من ثقافة الكتابة وهي فقرة مميزة تشرح الانثروبولوجيا الوصفية في مرحلة ما بعد الحداثة: مما يجعل بالتالي المقال نسبي وليس فقط لتشكيل هذا التشويه المعروف للمجدد ولا لنوايا السلطة أو لعالم أساسي بعيد عن المقالة،.يريد بشدة أن يتفهم الواقع المنفصل للصوفي والعالِمِ بالطريقة نفسها، أو حتى للتاريخ أو الإيدلوجية، أو تلك الملاجىء للمفسرين في علم اللاهوت المعني بالمبادئ؛ أوحتى إبراز اللغة بدرجة أقل تجعل التعبير التجريدي للمتحدث بلغات متعددة شيئا ماديا . وليست في النهاية، حتى لمناقشة تلك المسرحية النيتشية أرض العالم المفقود الخاص بأصحاب نظرية وجود هياكل اجتماعية غير جديرة بالملاحظة توَلد ظواهر اجتماعية جديرة بالملاحظة. لكن لأجل كل ذلك أو لا شيئ من هذا، لأنه فوضوي. ومع ذلك ليس لأجل الفوضوية، ولكن لأنه رفض أن يصبح شيء لاعقلاني بين الأشياء .لكي يتم تعريته و مقارنته و تصنيفه، وإخصاءه في تلك المحاكاة الساخرة من الفحص العلمي المعروف بالنقد.

عصر الاستعمار

المناقشة السابقة، قد تكون محاولة لتقرير أن الانثروبولوجيا غائبة عن حلبة السياسة لأنها في الحقيقة **"غريبة وغير مفيدة"**. ومع ذلك، لم يكن الأمر هكذا دائما. فلقد نشأت الانثروبولوجيا في الحقيقة كأداة فكرية لتعزيز سلطة الإمبراطور على حواف الإمبراطورية.

كان تطور ونمو الانثروبولوجيا في بريطانيا مرتبطا بشدة بالإدارة الاستعمارية. بدأ علماء الانثروبولوجيا مبكرا في عام ١٩٠٨، تدريب مديرو الخدمة المدنية السودانية. هذه العلاقة أضيفت عليها الصفة الرسمية سريعا: في عام ١٩٢١ ، تم إنشاء المعهد الدولي للغات والثقافات الإفريقية بتمويل من حكومات استعمارية متعددة، وأصبح اللورد لو جارد الحاكم السابق لنيجيريا، رئيسا لمجلسه التنفيذي. بنيت مهمة المعهد على مقالة برونسلو مالينو فسكى ***"الانثروبولوجيا العملية*** " التي حاولت أن تبرهن أن الانثروبولوجيا يجب أن تطبق لحل المشاكل التي يواجهها مديروا المستعمرات ويشتمل تلك التي فرضها **"القانون البدائي والاقتصاديات والأعراف والمؤسسات"**. كانت معرفة الانثروبولوجيا مفيدة في الغالب وخاصة في تفهم القوى المحركة للسلطة في المجتمعات التقليدية. في عام١٩٣٧ كمثال، لاحظت اللجنة

الدائمة لمعهد الانثروبولوجيا الملكي أن بحوث الانثروبولوجيا قد **"تشير إلى الأشخاص الذين يتولون مراكز هامة في المجتمع وسيكون من المهم تجنيد نفوذهم لجانب الإصلاحات المتصورة"**. في كلمات اللورد هيلى، **"كان لعلماء الانثروبولوجيا في الحقيقة دور عظيم في تزويد الحكومة بالمعرفة التي لابد أن تكون الأساس للسياسة الإدارية"**.

كانت الانثروبولوجيا: أداة للإمبراطورية ومن ناحية أخرى ليست خالية من نواقصها. كتب السير فيليب ميتشيل في عام ١٩٥١: **"علماء الانثروبولوجيا شغلوا أنفسهم (بكل) تفاصيل التجريب الغامض و الممارسات الشخصية وخاصة إذا ما كانت تتعلق بشكل مقبول بالجنس ومنكهة بالفحش. ونتج عن ذلك، عدد كبير من الاجتهادات وفي الغالب بيانات دقيقة لعادات وممارسات مثيرة إلى المدى الذي لا يتوفر وقت لأي أحد ليقرأها و (التي كانت) غالبا غير متعلقة بالموضوع.** "

عصر الحرب العالمية الأولى

بعد أن أشرف العصر الكلاسيكي للإمبراطورية على الانتهاء، أصبح علماء الانثروبولوجيا وعلماء الآثار لاعبين رئيسيين في اللعبة الجديدة في المدينة، التجسس. ثبت أن عاداتهم في التجول في المناطق البعيدة ومهارة الملاحظة مفيدة جدا للحكومة. ورغم أن عدد كبير من علماء الانثروبولوجيا عملوا كجواسيس أثناء الحرب العالمية الثانية (بما في ذلك أرثر كرينتر وتوماس جان وجون هيلد وصمويل لوثروب وهيربرت سبيندن) كان أكثرهم شهرة عالم الآثار المدرب في هارفارد سلفانوس مورلي الذي اكتشف المدينة القديمة لناكتون و أدار إعادة بناء تشيكن اتزا أثناء خدمته كرئيس لبرنامج كريبجي الآثاري من ١٩١٤ إلى ١٩٢٩. كان مورلى الذي يعد أحد علماء الآثار المحترمين للغاية في بداية القرن العشرين، أيضا **"أفضل عميل سري أنتجته الولايات المتحدة أثناء الحرب العالمية الأولى."**

في عام ١٩١٦ عندما كان عملاء الألمان يحاولون إنشاء قاعدة ألمانية مركزية لحرب الغواصات، قام مكتب الاستخبارات البحرية بتجنيد مورلي، الذي استخدم ميدان العمل في الآثار كتغطية ليجتاز ٢٠٠٠ ميل من الخط الساحلي الأمريكي متحملا، **"القرادة والناموس والبراغيث وذباب الرمل والتهابات المقعدة ودوار البحر ويرقات الديدان وأحيانا لاطعام على الإطلاق و سراير صخرية و فنادق سيئة السمعة و حتى الزلازل"**. عندما لم يجد مورلي ورفاقه أي قواعد غواصات ألمانية قام بإنتاج ١٠٠٠٠

صفحة من التقارير الاستخباراتية موثقا كل شيء بداية من معالم خط الساحل الصالح للملاحة إلى التأثير الاقتصادي لإنتاج حبال السيزل.

لم تأخذ أنشطة مورلى الاهتمام الواجب من قبل كثير من علماء الانثروبولوجيا. في ٢٠ ديسمبر ١٩١٩ أصدر فرانز بوز، أشهر علماء الانثروبولوجيا في أمريكا خطابا في الوطن، فحواه أن مورلي وآخرين (رغم عدم ذكر أسمائهم مباشرة) **"قاموا باستخدام العلم بطريقة حقيرة عبر استخدامه كغطاء لأنشطتهم كجواسيس. إن الجندي الذي يمتهن القتل كفن تشكيلي...يقبل (يقبلوا) القانون الأخلاقي الذي مازال المجتمع الحديث يتبعه. إن العالِم ليس كذلك. فجوهر حياته هو خدمة الحقيقة.**"

كان بوز اليهودي الألماني المولد، معارضا عنيدا للحرب وناقدا صريحا وجريئا للحرب، كتب مقالات افتتاحية عديدة ومقالات صحفية عبر فيها عن رأيه بأن الحرب العالمية الأولى كانت عدوان استعماري. (بطريقة تهكمية استمر كثير من تلامذته، منهم مرجريت ميد وروث بيندكيت في العمل بالجيش في وظائف سيسأل، بلا شك، عنها بوز)

قام اتحاد الانثروبولوجيا الأمريكي بتوجيه اللوم لبوز لادعاءاتِه العامة ضد زملاؤه من علماء الانثروبولوجيا وإن لم يذكر أسمائهم وذلك في عام ١٩١٩. تم انتقاد بوز من قبل نظراؤه بسبب أنشطته التجسسية مما أدى إلى مشاجرة داخل الاتحاد مما أعاد ظهور مسألة دعم الانثروبولوجيا السري لحكومة الولايات المتحدة في الستينيات.

عصر الحرب العالمية الثانية

دور علماء الانثروبولوجيا داخل ميدان الأمن القومي أثناء الحرب العالمية الثانية إلى حد كبير. خدم كثير من علماء الانثروبولوجيا في مكتب الخدمات الاستراتيجية OSS وهي السلف التنظيمي لكلٍ من وكالة المخابرات المركزية CIA والقوات الخاصة. خدم علماء الانثروبولوجيا في وظيفة البحوث والشرطة السرية. قام كارلتون كون، وهو أستاذ في الانثروبولوجيا، بتدريب مجموعات المقاومة المغربية، التي قاتلت في معركة القصرين، على الأعمال التخريبية وتهريب الأسلحة لمجموعات المقاومة الفرنسية في مراكش المحتلة بواسطة الألمان. احتوى كتابه : **" الحياة في دائرة الخدمات الاستراتيجية، قصة شمال**

إفريقيا – عالم الانثروبولوجيا كعميل في دائرة الخدمات الاستراتيجية" على روايات مسلية عن تطور العبوات الناسفة.

ولعلماء انثروبولوجيا آخرين أيضا عمليات مباشرة: قام توم هاريسون، وهو عالم في الأعراق البشرية، بالهبوط بمظلة في بورنو لتدريب الأهالي على حرب العصابات لقتال اليابانيين. أصبحت كورا دو بوا، التي خدمت كرئيس قسم أندونسيا في فرع البحوث و التحليل بدائرة الخدمات الاستراتيجية OSS ، رئيسا لقيادة جنوب شرق آسيا التي تحت الاحتلال الياباني. حصلت دوبوا على وسام الخدمة المدنية الاستثنائي في عام ١٩٤٥ لعملها مع الحركة السرية لحرية تايوان.

ربما كان أشهر علماء الانثروبولوجيا الذين خدموا في مكتب الخدمات الاستراتيجية هو جريجوري باتسون. وباتسون مواطن بريطاني قضى العديد من السنين يجري بحثا عن الانثروبولوجيا الوصفية في غينيا الجديدة، والذي تم نشر نتائجه في عام ١٩٣٩ باسم نيفيين. وفي بداية الحرب العالمية الثانية، بعدما أخفق باتسون في الحصول على وظيفة في مكتب الحرب البريطاني، رجع باتسون إلى الولايات المتحدة الأميركية حيث تم تعيينه في مكتب الخدمات الاستراتيجية، فخدم كعضو مدني في وحدة الاستخبارات الأمامية في جبال أراكان ببورما.

قام باتسون علاوة على تحليل الاستخبارات، بتصميم وإنتاج **"دعاية سوداء"** تذاع بالراديو بقصد إضعاف وتشويه سمعة الدعاية اليابانية في مسرح عمليات المحيط الهادي. ولكنه وجد العمل بغيض إلى نفسه لأنه اعتقد أن الحقيقة وخاصة غير السارة، كانت صحية. برغم توصياته حول الدعاية الخادعة، كان باتسون عاملا مستجيبا وكفؤا. في عام **١٩٤٥** تطوع لاختراق عمق أراضي العدو لمحاولة إنقاذ ثلاثة عملاء لمكتب الخدمات الاستراتيجية هربوا من الأسر الياباني. وقد حصل باتسون عن هذه الخدمة على وشاح الخدمة بالمحيط الهادي.

كان لدى باتسون رؤية استراتيجية مستقبلية رائعة فيما يتعلق بتأثير التكنولوجيا الحديثة على الحرب. أثناء وجوده بمسرح عمليات المحيط الهادي، كتب إلى المدير الأسطوري لمكتب الخدمات الاستراتيجية **"ويلدبيل"** دونوفان بأن وجود القنبلة النووية سوف يغير طبيعة القتال، دافعا الدول للتورط في أساليب غير مباشرة للحرب. أوصى باتسون، دونوفان، بأن لا تعتمد الولايات المتحدة على القوات التقليدية في

الدفاع ولكن عبر إنشاء وكالة ثالثة لاستخدام العمليات السرية والسيطرة الاقتصادية والضغوط النفسية في الحرب الحديثة. هذه المنظمة تعرف الآن بوكالة المخابرات المركزية.

وفي وقت لاحق من عمله، انهمك باتسون في عدد من مبادرات الصراع النفسي التجريبية، والتي تضمنت عملية ماك الترا الخاصة بوكالة الاستخبارات المركزية والتي كانت تجري أبحاث التحكم في العقل. وكان من المقبول على نطاق واسع أن باتسون **"قد حرك"** الشاعر آلان جينسبرج تجاه عقار LCD في معهد الأبحاث العقلية، حيث كان باتسون يحاول التوصل إلى أسباب انفصام الشخصية.

ولقد اشتهر باتسون على نطاق واسع بين علماء الانثروبولوجيا، ليس بسبب أنشطته في مكتب الخدمات الاستراتيجية بل لأنه زوج ميد. ففي عام ١٩٣٢، تقابل مع ميد في منطقة نهر سيبيك النائية في غينيا الجديدة. وبعد أن عملا ميدانيا سويا في غينيا الجديدة، تعاون باتسون وميد في إنتاج أفلام تصف الأجناس البشرية ووثائق مصورة للغة التخاطب بالجسد البلقانية.

ولقد انخرطت ميد أيضا، كزوجها، في مساعي الحرب. وبالإضافة إلى إنتاج كتيبات لمكتب معلومات الحرب. قامت بإجراء دراسة لمجلس الأبحاث القومي حول العادات الغذائية لأشخاص لهم جذور قومية مختلفة في الولايات المتحدة. كما قامت باستقصاء التوزيع الغذائي كوسيلة للحفاظ على المعنويات أثناء زمن الحرب في الولايات المتحدة. وجنبا إلى جنب مع باتسون وجيفري جورير، ساعدت ميد مكتب الخدمات الاستراتيجية في تأسيس وحدة تدريب الصراع النفسي من أجل الشرق الأقصى.

وقد كان لميد بعض التحفظات، مثل باتسون، على استخدام الدعاية المضللة معتقدة بأن مثل هذه الوسائل تنطوي على **"احتمالات رهيبة تعطي نتائج عكسية"**. ومع ذلك فقد كان أكبر اهتمامات ميد هو **"قدر الاستياء المروع"** ضد استخدام الانثروبولوجيا أثناء الحرب. وبشكل خاص، لقد لاحظت أن الاستفادة من علماء الانثروبولوجيا في نصح المستشارين غير مجد: ولكي يصبح ذا جدوى، يتعين على علماء الانثروبولوجيا أن يباشروا عملهم مع صانعي القرار أنفسهم.

في عام **١٩٤٢**، نشرت ميد كتابا بعنوان: حافظ على البارود جافا، وهو كتاب حول الثقافة العسكرية في الولايات المتحدة. ووفقا لما ذكرت ميد، فإن الأمريكيون يرون أن العدوان هو جواب أكثر منه استجابة أولية؛ حيث يؤمنون باستخدام العنف حبا للغير، وليس لأغراض شخصية؛ ويرون أن الصراع المنظم

عبارة عن مهمة لها حد فلابد أن تكتمل. وبمجرد اكتمال المهمة، يرحل الأمريكيون ويتحولون إلى المهمة التالية. ولقد أشار وليام أوه بيهان إلى أن ملاحظات ميد حول الشخصية الاستراتيجية القومية الأمريكية تبدو كما لو كانت قد تولدت من خلال وصف الحكومة الحالي للصراع في العراق على أنه حرب وقائية، اشتعلت بسبب التهديد الوشيك بأسلحة الدمار الشامل المعدة للاستخدام وقد تم تنفيذها حبا للغير، مثل **"جلب الديمقراطية للعراق"**، والتي سوف تكون قصيرة ومحدودة المدى.

في عام **١٩٤٣**، أصبحت بنديكت، صديقة ميد لفترة طويلة ومعاونتها، رئيسا (والعضو الوحيد في بادئ الأمر) لقسم التحليل الأساسي بمكتب الاستخبارات الخارجية التابع لمكتب معلومات الحرب. وهو المنصب الذي سعت إليه بنديكت للاستفادة منه في **"حث صانعي القرار على النظر بعين الاعتبار إلى العادات والتقاليد المختلفة للمناطق الأخرى من العالم"**. وأثناء عملها في مكتب معلومات الحرب شاركت بنديكت في تأليف كتيب ***سلالات الجنس البشري***، وهو عبارة عن كتيب حكومي دحضت فيه النظريات الزائفة للنازية حول تفوق الجنس الآري. ولقد هاجم أعضاء الكونجرس المحافظون هذا الكتيب كنوع من الدعاية الشيوعية، ولقد أدت الدعاية التي صاحبت الكتيب إلى بيع ٧٥٠٠٠٠ نسخة وترجم إلى سبع لغات وتم إنتاج فيلم موسيقي له في مدينة نيويورك.

ولقد أجرت بنديكت كذلك أبحاثا حول الشخصية والثقافة اليابانية، وهي الحقيقة التي لا يمكن المغالاة فيها. وعند اقتراب نهاية الحرب، كان كل من القادة العسكريين الكبار ورئيس الولايات المتحدة فراكلين ديلانو روزفلت على قناعة تامة أن **"ثقافة اليابانيين لا تقبل الاستسلام"** وأنهم سيقاتلون حتى آخر رجل فيهم. وقد طلب من بنديكت وعلماء الانثروبولوجيا الآخرين بمكتب معلومات الحرب دراسة صورة الإمبراطور في المجتمع الياباني. ولقد أقنعت نتائج بحوث مكتب معلومات الحرب روزفلت بأن يعفِ الإمبراطور من شروط الاستسلام (بدلا من المطالبة بالاستسلام غير المشروط كما فعل مع كل من الحاكم الديكتاتور أدولف هتلر وبينيتو موسوليني). وفي عام **١٩٤٦** نشرت الكثير من أبحاث بنديكت التي قامت بها لمكتب معلومات الحرب مثل الأقحوان والسيف والتي اعتبرها الكثير من الأمثلة النموذجية لوصف ثقافة الجنس البشري الياباني العسكرية، على الرغم من عدم زيارة بنديكت لتلك البلاد على الإطلاق.

نظرا لاستحالة العمل الميداني بمعناه التقليدي أثناء الحرب. تعين دراسة الثقافات عن بعد. وقد عرف إسهام النظريات التي قام بها علماء الانثروبولوجيا أثناء الحرب العالمية الثانية في هذا الفرع من المعرفة على نطاق واسع باسم الثقافة عن بعد. وقد قام كل من ميد وبنديكت وآخرين، بعد الحرب من عام **١٩٤٦** إلى عام ١٩٥٣، بتأسيس برنامج بحثي في جامعة كولومبيا. كما قام علماء الانثروبولوجيا، بموجب عقد للعمل لصالح مكتب الأبحاث البحرية بالولايات المتحدة، بتطوير تقنيات لتقييم مظاهر الثقافة الاصطناعية، مثل دلائل الهجرة واللجوء، والفن و روايات المسافرين لرسم صورة حول ثقافة بعينها.

لقد تجذرت أغلب دراسات الثقافة عن بعد على المقدمات المنطقية لعلم النفس التطويري، مثل إمكانية إرجاع ما يطلق عليه الشخصية القومية لأية مجموعة من الأشخاص إلى عموميات العمليات النفسية المتطورة. وفي حين يبدو أن بعض النتائج الخاصة بهم أصبحت الآن سخيفة (مثل **"فرضية القيد"** لجورير التي تفسر التأرجح ثنائي القطب في الثقافة الروسية من الكبت العاطفي إلى عدوانية شرب الخمر)، لم تكن نتائج الأبحاث الأخرى دقيقة وحسب بل كانت ذات قيمة في المحيط العسكري.

الحروب الصغيرة

في يناير عام ١٩٦١، تقابل رئيس الولايات المتحدة جون كينيدي مع مستشار الأمن القومي والت ويتمان روستو لمناقشة تهديدات الأمن القومي المختلفة. وقد وجه كل من كينيدي وروستو عنايتهم لقضية فيتنام. حيث صرح كينيدي بقوله: **"هذه القضية هي أسوأ ما لدينا. أتعلم، إن إيزنهاور لم يذكرها مطلقا. لقد أطال الحديث عن لاوس، ولكنه لم يلفظ كلمة فيتنام على الإطلاق".**

لقد تم استلهام مناقشة كينيدي وروستو (وتصديق كينيدي على **"خطة مكافحة التمرد"** في فيتنام بعد ١٠ أيام من نيل المنصب) من تقرير اللواء إدوارد جي لانسدال حول الموقف في فيتنام. لقد كان لانسدال، والذي كان يُعتقد على نطاق واسع بأنه نموذج ألدن بيل في مؤلف جراهام جرين الأمريكي الهادئ، مدير تنفيذي سابق بمؤسسة إعلانية والذي أعاق ببراعة بمفرده تفشي الشيوعية في الفليبين. فقد ساعد لانسدال في تنصيب نيجو دينه ديم كرئيس لحكومة جنوب فيتنام التي تؤيدها أمريكا، ثم أدار في وقت لاحق عملية النمس، المؤامرة السرية لإسقاط حكومة فيدل كاسترو بأية وسيلة ممكنة.

أفضل وصف لأغلب عمليات مكافحة التمرد التي نفذها لانسدال في الفليبين هو تطبيق فرضيات الانثروبولوجيا عسكريا. فعلى سبيل المثال، في الخمسينات، كجزء من حملته لمكافحة التمرد ضد متمردي الهوك في الفليبين، قام بإجراء بحث حول الخرافات المحلية التي استغلها في **"الحرب النفسية"**. تم إجراء عملية حرب نفسية على مجموعة من العامة يفزعون من أسونج، أو مصاص الدماء.

عندما عبرت مجموعة من الهوك الممر، قام أفراد الكمين بخطف آخر رجل من المجموعة.... وقاموا بثقب عنقه ثقبين، على غرار مصاص الدماء. وحملوا الجثمان من الكعبين لإفراغه من الدماء، ثم أعادوا الجثة إلى الممر. وعندما عاد أفراد الهوك للبحث عن الرجل المفقود ووجدوا رفيقهم مصفى الدماء، اعتقد كل فرد من الجماعة أن أسونج (مصاص الدماء قد أمسك به وأن واحدا منهم سوف يكون التالي...) وقد لاحظ لانسدال أن مثل هذه التكتيكات كانت فعالة بشكل رائع.

أثناء تمرد الهوك، كان خبير حرب العصابات الحقيقي هو النقيب تشارلز بوهنان، والذي شارك في وقت لاحق في تأليف أحد أفضل الدراسات حول مكافحة التمرد عمليا، عمليات مكافحة رجال العصابات: تجربة الفليبين. ولقد مكث بوهنان، الذي قاتل كفرد من حرب العصابات ضد اليابانيين في غينيا الجديدة وفي الفليبين أثناء الحرب العالمية الثانية، في الفليبين كضابط جيش في الاستخبارات المضادة وكان من البديهي انتقاؤه ضمن الفريق عندما عاد لانسدال إلى الفليبين عام ١٩٥٠. وقد استمر بوهنان في العمل مع الانسدال في فيتنام (وبجلاء في لاوس) طوال الخمسينات والستينات، يقوم بدور نائب القائد في **"مهمة سايجون العسكرية"** السرية التي كان لانسدال قائدا عليها. ومن المرجح إلى حد بعيد أن بوهنان كان أيضا المخطط العسكري لعملية خليج الخنازير.

لقد تخرج بوهنان وأنهى دراسات عليا في الانثروبولوجيا وكان من المؤيدين بقوة لتعلم الثقافة المحلية و**"الترسيخ التام لها"** أثناء التدريب والعمليات. ولقد كان مولعا بشكل خاص **"بالعمليات التي تهدف إلى التأثير في تفكير البشر."** ففي عام ١٩٥٩، على سبيل المثال، كان أحد أعضاء فريق الاستبيان الأمريكي السري الذي تم إرساله إلى كولومبيا لتقدير حجم التمرد وتقديم خطة لمعركة الولايات المتحدة وكولومبيا. ولقد سافر الفريق، على غرار علماء الانثروبولوجيا الذين يجرون العمل الميداني، ما يزيد عن ٢٣٠٠٠ كيلومترا وأجروا مقابلات مع ما يزيد عن ٢٠٠٠ من المسئولين والمدنيين وقائدي حرب العصابات. واستعرض تقريرهم، المكون من ثلاثة مجلدات، لحكومتي كولومبيا والولايات المتحدة

تاريخ العنف والأوضاع الاجتماعية الاقتصادية الأصلية، والتوصيات التي صدرت لإعادة التشكيل الاجتماعي والمدني والعسكري.

كان بوهنان يؤمن باستخدام الحد الأدنى من القوة في مكافحة التمرد. ولقد اعترض، في وثيقة لم يتم نشرها عام 1964 تم إرسالها من فيتنام، على الوسائل الشمولية في مكافحة التمرد حيث أنها تنطوي على نتائج مضادة: **"الاعتقالات الواسعة والتفتيش الجماعي وغيرها من الطرق الظاهرية اليسيرة من أجل السيطرة على الشعوب" من شأنها تصعيد المعارضة ضد الحكومة فقط"**. وكذلك وفقا لما ذكر لانسدال، إن استخدام القوة العارمة غير فعال تماما في مجابهة أي تمرد: **"مكن فقط للحكومات الشمولية المستقرة أو الشيوعية أو الاستعمارية مع بعض الموارد غير المحددة نسبيا التدبير بشكل جاد في أو محاولة، قتل أو اعتقال أغلب المتمردين ومؤيديهم"**.

لقد انتبه روفوس فيليب المستشار المخلص لبوهنان، (والضابط السري السابق في وكالة الاستخبارات المركزية والذي ترأس مؤخرا قسم الشئون القروية في الوكالة الأمريكية المختصة بالمهمة الدولية للتطوير في فيتنام) في مذكرة عام **١٩٦٤** إلى أن الجيش الأمريكي يسيطر عليه **"فكر عسكري تقليدي"**. فلا يوجه القيادة الأمريكية لا النمط البريطاني المتفاني من أجل هدف سياسي. بغض النظر عن الإجراء ات غير المشروعة المستخدمة لتحقيقه. ولا أية مصلحة خاصة في الجانب غير العسكري لمكافحة الولايات المتحدة للتمرد: **"كل فرد يتحدث عن المعارك المدنية والصراع النفسي في حين قليل من تركيز القيادة كان عليها ذاتها وأنها غير مفهومة، فقد ظل أغلب التركيز على قتل الفيتناميين."**

حرب فيتنام

على الرغم من ثقل وزن رجال مثل لانسدال وبوهنان بمنزلتهم العسكرية المرتفعة والدوائر السياسية الواسعة أثناء حرب فيتنام، إلا أن تفضيل الجيش لاستخدام القوة العارمة بشكل متكرر فاق الجانب الوجداني والعقلي لمكافحة التمرد. ولقد توصل علماء الانثروبولوجيا كجيرالد هيكي، الذي اتجه إلى فيتنام بعد أن تخرج في جامعة شيكاغو وظل هناك خلال فترة الحرب بوصفه باحث يعمل لدى معهد راند، إلى أن القادة العسكريين الأمريكيين الذين يتبنون مفهوما تقليديا للحرب بوصفه صراع متصاعد كثيرا ما يتجاهلون معارفهم العميقة عن فيتنام (والقيمة في مكافحة التمرد). فقد أثار عمل هيكي عددا

من القضايا التي تعد مصدر إزعاج للبحث المتعلق بعلم الإنسان في المحيط العسكري حتى الآن، مثل سياسات البحث داخل المواضيع المهمة لواشنطن وعدم القدرة على تغيير السياسات مضادة النتائج واغتياب علماء علم الإنسان المعادين للعمل العسكري.

لقد قام معهد راند بتوظيف هيكي، الذي ألف كتاب بعنوان: قرية من فيتنام، ويعتبر من كلاسيكيات علم دراسة الأجناس البشرية، يتحدث عن أبناء الجنوب الفيتناميين بإحدى القرى، وذلك في عام **١٩٦١** لتقديم دراسة تم دعمها ماليا من منظمة DARPA. وقد اتبعت الدراسة برنامج القرى الاستراتيجية حديث العهد والذي كان يسعى لتعزيز السيطرة الحكومية في مناطق المحيط الهادي من خلال تأسيس نظام دفاعي وإعادة تنظيم الإدارة على مستوى القرية. وكانت القضية الرئيسية في الدراسة هي كيفية تشجيع القبائل التي تسكن الهضاب على دعم الحكومة الفيتنامية في الجنوب.

لقد أشار بحث هيكي إلى أن فكرة القرى الاستراتيجية قد تنجح إذا ما رأى المزارعون برهان على عملهم الاشتراكي وإسهامهم بالوقت والأرض ومواد البناء والتي ينتج عنها بالفعل حماية ملموسة واقتصادية. وعلى الرغم من أن ملاحظات هيكي كانت صحيحة إلى حد ما، انصرفت الأنظار عن آرائه لأنها كانت معارضة للعنف بشدة. وعندما حاول هيكي استخلاص المعلومات من اللواء البحري فيكتور كرولاك، خبط اللواء بقبضته على المكتب وقال، **"سوف نرغم الفلاحين على القيام بما هو ضروري لنجاح فكرة القرى الاستراتيجية!"**. وكما لاحظ هيكي، كان لدى الفلاحين العديد من طرق المقاومة الإيجابية والسلبية وعادة ما كان استخدام القوة دافع لحصد النتائج المضادة. وقد ضغطت وزارة الدفاع الأمريكية بعد استيائها من نتائج الدراسة على معهد راند لتغيير تلك النتائج ولكن معهد راند رفض ذلك. حرصا منها على حيادية البحث. وفي النهاية، لم يتم تطبيق أي من نتائج هيكي، وفشل برنامج القرى الاستراتيجية.

في عام **١٩٦٤**، حدثت ثورة كبيرة قامت بها جماعات قبلية تسكن هضاب مونتاجنارد تحت لواء فولرو (الجبهة المتحدة لنضال الأجناس المضطهدة). وعلى الرغم من انحياز جماعات مونتاجنارد للولايات المتحدة ضد الشمال الشيوعي وإمدادها بفرق عسكرية أميركية (والقتال معها جنبا إلى جنب). فقد عارضوا بشدة جهود الحكومة الفيتنامية في الجنوب للسيطرة على منطقتهم والامتزاج مع الشعب.

كان التعامل مع الثورة هو الأمر الرئيسي الذي يهم الجيش والحكومة الفيتنامية في الجنوب حيث كان للهضاب المركزية أهمية استراتيجية كما كانت تتضمن ممر هو تشي مينه الذي كان يمثل الطريق الرئيسي لتسلل الفيتناميين الشماليين وإمدادهم. وقد أطلع هيكي، الذي عمل عن قرب مع جماعات مونتاجنارد لعدة أعوام، كبير قادة القوات الأمريكية في فيتنام اللواء وليام ويستمورلاند على أسباب تصاعد العرقية القومية بين القبائل وكيفية التغلب على الثورة. كما قام هيكي بنجاح بدور الوسيط بين قادة سكان الهضاب وحكومتي الولايات المتحدة وفيتنام في الجنوب.

ومع تقدم القتال، أصيب هيكي بالإحباط المتزايد بسبب وجهة النظر الاستراتيجية العسكرية التي اعتنقها الضباط أمثال اللواء وليام إي ديبوي من الجيش الأمريكي والذي كان يؤمن بأن حرب الاستنزاف سوف تدحر الشيوعيين. وكانت وجهة نظر هيكي أن الحرب في فيتنام كانت نضال سياسي من الممكن حله بالعلاقات السياسية المتبادلة، وليس من خلال قوة عسكرية محضة. وبوصفه أحد علماء الانثروبولوجيا، أدرك أن عناصر الثقافة الفيتنامية الخاصة لا يمكن الاستفادة منها لتحقيق السلام فيما بين الأطراف القومية السياسية المتواجدة والمجموعات الدينية والأقليات. والذين لا يرحب بهم الحكم الشيوعي.

في بحث رائع بعنوان **"المواءمة في جنوب فيتنام: مفتاح التضامن الاجتماعي السياسي"**، استكشف هيكي مفهوم الثقافة الفيتنامية الفطرية لمعنى المواءمة. في حين شددت الجذور الطاوية لنظام القيم الفيتنامية على المذهب الفردي، كانت المواءمة في وجهة نظر المجتمع الفيتنامي ضرورية أيضا لاستعادة التوافق مع العالم المحيط. وفي واشنطن العاصمة، تم التعامل مع آراء هيكي حول المواءمة على أنها بدعة. وفي عام ١٩٦٧، في نهاية الموجز الذي قدمه هيكي للحاضرين في وزارة الدفاع الأمريكية قال ريتشارد هولبروك: "ماذا تود أن تقول يا هذا، ألسنا بصدد إحراز النصر العسكري في فيتنام." لقد تم صرف النظر عن رسالة هيكي من غير إبطاء لأنها لم تكن تعمل وفق وجهة النظر السائدة حول الصراع. وبغض النظر عن عدم احتمالية النصر العسكري، كانت "المواءمة" تعني لقادة الولايات المتحدة **"الخضوع"** وكان هذا البديل غير مقبول. وفي النهاية كان الحل الأمريكي للصراع هو استخدام القوة العارمة في صورة القصف الاستراتيجي وتعجيل حملة التهدئة، والتي لم يسفر أي منها عن النصر.

ولقد حصل هيكي على وسام الخدمة العامة المميز من وزير الدفاع روبرت ماكنمارا نظير **"دراساته حول الأجناس البشرية"** و**"إسهاماته في تحسين العلاقة بين مستشار الولايات المتحدة ونظيره الفيتنامي"** و**"تواجده ومشورته أثناء فترات هجوم القوات الفيتنامية وثورات جماعات مونتاجنارد"**. وعلى الرغم من حصوله على هذا الوسام (وربما بسبب الحصول عليه)، لم يتمكن هيكي من الحصول على وظيفة جامعية عند عودته إلى الولايات المتحدة. فقد رفض زميل من علماء الانثروبولوجيا، كان معارضا لانضمامه لمعهد راند، تعيينه في وظيفة بجامعة شيكاغو. ومن سخرية القدر أن تم الاستغناء عن هيكي من معهد راند بعد أن صرف اهتمامه عن مكافحة التمرد. وسيرا على درب قادة أركان الحرب المشتركة لم يعد معهد راند يجري أبحاثا حول الصراع غير التقليدي، بل وجه اهتمامه إلى المسائل بعيدة المدى الخاصة بالحرب التكتيكية المحدودة والردع بموجب مذهب نيكسون.

مشروع كاميلوت

أثناء شهادته أمام الكونغرس عام **١٩٦٥** صرح أر إل سبرول، مدير وكالةDARPA: إن قضيتنا الرئيسية هي السيطرة على مناطق الصراع البعيدة بطريقة رشيدة من خلال البيئة المحيطة التي يجري بها الصراع. وبمساعدة علم الاجتماع والانثروبولوجيا في الحرب، ومن خلال طبيعة الصراع نفسه.

أدركوا في وزارة الدفاع أن جهود الأبحاث والتطوير لدعم عمليات مكافحة التمرد يجب أن توجه إلى المناطق المحلية المأهولة بالسكان عبر تأسيس مكتب أبحاث العمليات الخاصة بالجامعة الأمريكية في واشنطن العاصمة. ومع إمداد مكتب أبحاث العمليات الخاصة بعلماء الانثروبولوجيا وغيرهم من علماء الاجتماع فقد قام بدور مركز أبحاث البعد الإنساني في مكافحة التمرد ولقد تناول العديد من تقارير مكتب أبحاث العمليات الخاصة نهجا فريدا. ففي عام ١٩٦٤، عهد الجيش بأحد الأبحاث الفريدة بعنوان "السحر والشعوذة والفتنة وغيرها من الظواهر النفسية، وتأثيرها على العمليات العسكرية وشبه العسكرية في الكونغو" تأليف جيمس آر بريس وبول جورديني، والتقرير كان عبارة عن بحث حول المعركة شبه الطبيعية، كما ناقش تكتيكات "السحر المضاد" لمواجهة المتمردين الذين يساندهم المعالجون من السحرة والتعاويذ والشراب السحري.

في عام ١٩٦٤، قام كذلك مكتب أبحاث العمليات الخاصة بتصميم مشروع كاميلوت المشين. وطبقا لما ورد في رسالة موجهة من مكتب مدير مكتب أبحاث العمليات الخاصة، إن مشروع كاميلوت هو عبارة عن **"دراسة هدفها تحديد جدوى تطوير نموذج أنظمة اجتماعية عام يتيح إمكانية التنبؤ والتأثير سياسيا في الجوانب الهامة للتغير الاجتماعي في دول العالم النامية."** وكان من بين أهداف المشروع **"تدبير الإجراءات لتقييم إمكانية الحرب الداخلية ضمن المجتمعات القومية؛ وذلك للتكيف مع درجات الثقة المتزايدة تجاه الإجراءات التي قد تتخذها الحكومة لتخفيف حدة الظروف التي تم تقديرها على أنها من أسباب تصاعد إمكانية وقوع حرب داخلية، وكذلك لتقييم جدوى توصيف خصائص للنظام من أجل الحصول على المعلومات الهامة الضرورية واستخدامها لتحقيق الهدفين أعلاه".**

تسبب مشروع كاميلوت، والذي بدأ أثناء فترة قيام الجيش بمكافحة التمرد بشكل جاد بوصفه منطقة اختصاص، في إدراك الحاجة إلى فروض علم الاجتماع. وطبقا لما ذكر في رسالة المدير: **"كانت هناك موافقة سريعة على وجه الخصوص في الجيش على الحاجة إلى تحسين الفهم العام لعمليات التغير الاجتماعي في حالة تخلي الجيش عن الاضطلاع بمسؤولياته في برنامج مكافحة التمرد ككل والخاص بحكومة الولايات المتحدة".**

كانت دولة شيلي موضع الدراسة الأولى لمشروع كاميلوت. وقد تم دعوة عالم الاجتماع النرويجي جوهان جالتنج لتصميم حلقة دراسية عن مشروع كاميلوت.

وعلى الرغم من رفضه، فقد شارك مع زملائه معلومات حول المشروع. وفي غضون وقت قصير قَبِل هوجو نوتيني، الذي عمل بتدريس الانثروبولوجيا في جامعة بتسبرج، مهمة لمشروع كاميلوت في شيلي. وأثناء تواجده هناك، أخفى الطبيعة العسكرية لمشروع كاميلوت، في حين زل لسانه ببعض الكلمات. وظهرت الاحتجاجات الرسمية من صحف شيلي والهيئة التشريعية، كما قدمت حكومة شيلي احتجاجا دبلوماسيا لسفير الولايات المتحدة. وعقب بدء التحقيقات الأولية في الموضوع في الكونجرس في واشنطن العاصمة ألغى ماكنامارا مشروع كاميلوت في عام ١٩٦٥.

فضيحة تايلاند

بعد وقت قصير عقب فضيحة مشروع كاميلوت، ظهرت مسألة البحث السري من جديد في تايلاند. ففي مارس عام ١٩٧٠، سرقت وثائق من حجرة ملفات أحد أساتذة الجامعة تُظهر تورط علماء اجتماعيين في برامج الولايات المتحدة لمكافحة التمرد في تايلاند. وأعطيت الوثائق إلى لجنة تحرك الطلاب لإنهاء الحرب في فيتنام ثم نشرت في وقت لاحق في تحَرُكْ الطلاب. وقد قام عدد من علماء الانثروبولوجيا وغيرهم من علماء الاجتماع بجمع بيانات من وزارة الدفاع وحكومة تايلاند الملكية لدعم برنامج مكافحة التمرد والذي سيستخدم الوسائل المتطورة لتشجيع القرى القبلية لتظل على ولائها للحكومة التايلاندية بدلا من الانضمام إلى المتمردين. وعلى الرغم من ادعاء علماء الانثروبولوجيا استخدام خبراتهم للحيلولة دون وقوع ضرر على القرى التايلاندية فقد جرت مناقشات ساخنة بداخل لجنة الأخلاق في جمعية الانثروبولوجيا الأمريكية.

وكنتيجة لمشروع كاميلوت وفضيحة تايلاند، تم تعليق تمويل الحكومة لأبحاث علم الاجتماع واستخدامها لها. وخشي علماء الانثروبولوجيا، عند الشروع في استئناف الأبحاث أن يعتقد الأشخاص البسطاء محل الدراسة أنهم جميعا جواسيس، مما يجهض فرص العمل الميداني المستقبلي في الخارج. كما كان العديد من علماء الانثروبولوجيا على ثقة تامة من استخدام تلك المعلومات في السيطرة على العديد من المجتمعات محل الدراسة واستعبادهم وحتى إبادتهم.

وتمخضت تلك المناقشات عن نتيجة فحواها الحكم على تقديم علماء الانثروبولوجيا بيانات سرية موجزة غير مقبول أخلاقياً. وعبر **"بيان مسؤولية المختصين"** الخاص بجمعية الانثروبولوجيا الأمريكية بالقول التالي: **"لا يجب على علماء الانثروبولوجيا إجراء أية أبحاث سرية أو أية أبحاث يتعذر إعلان نتائجها بشكل مطلق أو طرحها على الملأ... لا يجب الموافقة على أية أبحاث سرية ولا تقارير أو بيانات موجزة سرية من أي نوع أو إعطاؤها."** وتعكس هذه الإرشادات رأيا منتشرا بين علماء الانثروبولوجيا بأن أية أبحاث تتم لأغراض عسكرية هي الشر بعينه وغير مقبولة أخلاقيا.

تتوق وزارة الدفاع الأمريكية إلى معرفة ثقافة الآخرين، رغم رفض أغلب علماء الانثروبولوجيا المشاركة، مقيدين بمبادئهم الأخلاقية وغارقين في مستنقع ما بعد الحداثة، بالكثير مما له أهمية لإعادة تشكيل سياسة الأمن القومي أو ممارستها. ومع ذلك، إذا ظل علماء الانثروبولوجيا بعيدين عن هذا المضمار، فمن الذي سوف يوفر المعرفة المتعلقة بهذا الأمر؟ وكما أشارت أنَّا سيمونس عالمة الانثروبولوجيا التي تعمل بالتدريس في كلية الدراسات العليا البحرية: إذا كان علماء الانثروبولوجيا يرغبون في دفن رؤوسهم في الرمال وعدم تقديم المساعدة فمن الذي سوف يلجأ إليه الجيش ووكالة الاستخبارات المركزية وغيرها من الوكالات للحصول على المعلومات؟ سيلجئون إلى أشخاص سوف يقدمون لهم نوعا من المعلومات ستجعل علماء الانثروبولوجيا ينتفون شعر رؤوسهم لأنها لن تكون ذات صلة وثيقة أو مباشرة لما هو حادث في أرض الواقع.

وبغض النظر عما إذا قرر علماء الانثروبولوجيا اقتحام ساحة الأمن القومي، فسوف تستخدم المعلومات الثقافية بشكل محتوم كقاعدة للعمليات العسكرية والسياسة العامة. وإذا رفض علماء الانثروبولوجيا المشاركة، فإلى أي مدى يمكن الاعتماد على تلك المعلومات؟ وستكون نتيجة استخدام فرضيات غير مكتملة **"رديئة"** للانثروبولوجيا، بلا شك، فشل العمليات وفشل السياسات. وفي مقال نيويوركر الذي صدر في مايو عام ٢٠٠٤، **"المنطقة الرمادية: كيف وصل البرنامج السري للبنتاغون لسجن أبو غريب"**. لقد لاحظ سيمور هيرش أن دراسة رافائيل باتاي عام ١٩٧٣ الخاصة بثقافة العرب ونفسيتهم، عقلية العرب، كانت أساس لفهم قوات الجيش لنقاط الضعف النفسية للعرب، وخصوصا المتعلقة بالخجل والإذلال الجنسي.

لقد صرح باتاي: **"إن العزل بين الجنسين واحتجاب النساء... وغيرها من كافة القواعد الصارمة التي تحكم الاتصال بين الرجال والنساء وتقيده قد جعلت من ممارسة الجنس الشاغل الذهني الرئيسي في العالم العربي."** وهنا يظهر الغرض من تصوير الضحايا العراقيين أثناء تعرضهم للابتزاز الجنسي وهو تحويلهم لمخبرين ضد المتمردين. وذلك لتجنب عرض الصور على الأسرة والأصدقاء، فكان من المعتقد أن العراقيين سوف يقومون بأي شيء مهما كان.

وكما صرح برنار برودي من الجيش الفرنسي عام ١٩١٤. **"لم تكن هذه هي المرة الأولى ولا الأخيرة التي يؤدي فيها الاستعمال السيء للأنثروبولوجيا إلى استراتيجية حرب سيئة".** لم يكن استخدام الإذلال الجنسي كاستراتيجية لابتزاز العراقيين للتصريح بالمعلومات ليؤتي ثماره، فلم يكن إلا انتهاكا للشرف، وعند العراقيين استعادة الشرف المسلوب لا يتم إلا بالثأر بالدم. لقد نمى هذا المفهوم جيدا في الثقافة العراقية، بل ويوجد عبارة عربية خاصة لذلك: الشرف. التمسك بشرف المرء بقوة. إن الاستخدام المزعوم لكتاب باتاي كأساس للتعذيب النفسي في سجن أبو غريب، يخلو من أي إدراك للسياق الواضح للثقافة العراقية، ويبرهن على حماقة استخدام ثقافة غير متناسقة كأساس للسياسة المتبعة.

تعتمد سياسة مكافحة التمرد الناجحة على بلوغ الفهم الكامل للثقافة المحلية ويجب أن يكون إدراك هذه الثقافة شامل وعميق إذا ما كان لها أية منفعة عملية على الإطلاق. وهذه الحقيقة ليست غائبة عن رجال الجيش. وبتعبير فقرة" : FM 3-07-22 إن مركز الثقل في مكافحة التمرد هو الشعب. وبناء عليه. فإن فهم المجتمع المحلي ونيل دعمه هو ضرورة للنجاح. ولكي تقوم قوات الولايات المتحدة بمهامها بشكل فعال بين أفراد المجتمع المحلي ونيل دعمهم والاحتفاظ به فمن الضروري فهم المجتمع وثقافته، بما في ذلك تاريخه وبنيته القبلية أو الأسرية أو الاجتماعية وقيمه ودياناته وتقاليده واحتياجاته .

لدحر التمرد في العراق يتعين على الولايات المتحدة وقوات الائتلاف التعرف على البناء القبلي الأصلي للبلاد واستثماره، وقوة نفوذ جهات السلطة التقليدية والاستفادة من الإسلام كمذهب فكري سياسي، والمصالح التنافسية للشيعة والسنة والأكراد، والتأثيرات النفسية للديكتاتورية والتمييز ما بين الحضر والريف وبين غيرها من الأشياء.

ويستأنف **FM 3-07-22** قائلا إن إدراك الطراز الاجتماعي للمنطقة والعمل ضمنه يعد، بشكل مبدئي، العنصر الأكثر تأثيرا في إجراء عمليات مكافحة التمرد. وللأسف الشديد، عادة ما يكون هذا العنصر الأكثر إهمالا من قوات جيش الولايات المتحدة.

وللأسف الشديد كذلك، فإن علماء الانثروبولوجيا، التي تُعد مساعداتهم ضرورية بدرجة كبيرة في زمن الحرب، يهملون قوات جيش الولايات المتحدة كلية. وعلى الرغم من أن واقع التطبيقات العسكرية للمعرفة الثقافية قد تكون كريهة لعلماء الانثروبولوجيا المنحازين إلى الجانب الأخلاقي إلا أن مساعداتهم لا تزال ضرورية.